الباب الرابع

علم القلوب

obeikandl.com

obeikandl.com

يجب على كل مسلم ومسلمة معرفة أمراض القلوب وعلاجها.

❑ **أمراض القلوب وعلاجها:**

مرض القلب خفى قد لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وعلاجه هو أن ينظر إلى العلة، ومَن أراد أن يقف على عيوب نفسه فله فى ذلك أربع طرق:

الأولى: أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس يعرفه عيوب نفسه.

والثانية: أن يختار صديقاً متديناً وينصبه رقيباً على نفسه.

والثالثة: أن يعرف عيوبه من ألسنة أعدائه.

والرابعة: أن يخالط الناس، فكل ما يراه مذموماً بينهم يجتنبه.

❑ **من أمراض القلوب:**

(١) الغضب:

الغضب شعلة من النار.

ومن نتائجه: الحقد والحسد.

وحقيقته: غليان دم القلب لطلب الانتقام، فمتى غضب الإنسان ثارت نار الغضب ثوراناً يغلى به دم القلب، وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن، كما يرتفع الماء الذى يغلى فى القِدْرِ.

ومن آثار الغضب فى الظاهر: تغيُّر اللون، وشدة الرعدة فى الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب، واستحالة الخلقة، وتعاطى فعل المجانين، ولو رأى الغضبان صورته فى حالة غضبه وقبحها لأنف لنفسه من تلك الحال، ومعلوم أن قبح الباطن أعظم.

- فى بيان الأسباب المهيجة للغضب وعلاجها.

اعلم أن علاج كل علة بحسب مادتها وإزالة أسبابها.

فمِن أسبابه: العُجب، والمزاح، والمماراة، والمضادة، والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، فينبغى أن يقابل كل واحد من هذه بما يضاده، فيجتهد على حسم مواد الغضب وقطع أسبابه.

ـ وأما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور:

أحدها: أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى فضل كظم الغيظ والعفو، والحلم، والاحتمال.

الثانى: أن يُخوِّف نفسه عقاب الله تعالى، وهو أن يقول: قدرة الله علىّ أعظم من قدرتى على هذا الإنسان، فلو أمضيت فيه غضبى، لم آمن أن يمضى الله عزّ وجل غضبه علىّ يوم القيامة فأنا أحوج ما أكون إلى العفو.

والثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدو فى هدم أعراضه، والشماتة بمصائبه، فإن الإنسان لا يخلو عن المصائب، فيخوِّف نفسه ذلك فى الدنيا والآخرة .

الرابع: أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب.

الخامس: أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام، مثل أن يكون سبب غضبه أن يقول له الشيطان: إنّ هذا يحمل منك على العجز، والذلة والمهانة، وصغر النفس، وتصير حقيراً فى أعين الناس، فليقل لنفسه: تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزى يوم القيامة وينبغى أن يكظم غيظه فذلك يعظمه عند الله تعالى.

السادس: أن يعلم أن غضبه إنما كان من شىء جرى على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده، فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى . هذا ما يتعلق بالقلب، وأما العمل: فينبغى له السكون، والتعوذ، وتغيير الحال، وإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع ويتوضأ.

(٢، ٣) الحقد والحسد:

اعلم أن الغيظ إذا كُظِم لعجز عن التشفى فى الحال رجع إلى الباطن، فاحتقن فيه فصار حقداً.

وعلامته: دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور منه، فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد.

واعلم أن الله تعالى إذا أنعم على أخيك نعمة، فلك فيها حالتان :

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

والحالة الثانية: أن لا تكره وجودها ولا تحب زوالها، ولكنك تشتهى لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة.

واعلم أنّ النفس قد جُبِلت على حب الرفعة، فهى لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها شقّ عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوى، وهذا أمر مركوز فى الطباع.

وعلاج الحسد، تارة بالرضى بالقضاء، وتارة بالزهد فى الدنيا، وتارة فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما فى النفس أصلاً، ولا ينطق فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع فى جبلته.

فأما مَن يحسد نبياً على نبوته، فيجب أن لا يكون نبياً، أو عالماً على علمه، فيؤثر أن لا يرزق ذلك أو يزول عنه، فهذا لا عذر له، ولا تجبل عليه إلا النفوس الكافرة أو الشريرة، فأما إن أحب أن يسبق أقرانه، ويطلع على ما لم يدركوه، فإنه لا يأثم بذلك، فإنه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه، كما لو استبق عبدان إلى خدمة مولاهما، فأحب أحدهما أن يستبق وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وفى الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله عز وجل القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه فى الحق آناء الليل وآناء النهار».

والحسد له أسباب:

أحدها: العداوة والتكبر، والعجب، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها، وأشدها العداوة والبغضاء، فإنّ مَن آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه فى غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ فى نفسه الحقد.

والحقد يقتضى التشفى والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقى أن لا يبغى، وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً فيستوى عنده مسرته ومساءته، فهو غير ممكن.

وأمّا الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو ولاية، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يكون من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل ترفعه عليه أو مساواته.

وأمّا حب الرياسة والجاه، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظر فى فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به. من أنه أوحد عصره، وفريد الدهر فى فنه، إذا سمع بنظير له فى أقصى العالم، ساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة التى بها يشاركه فى علم أو شجاعة أو عبادة أو صناعة أو ثروة أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد.

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبى ﷺ ولا يؤمنون به خوفاً من بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس مَن لا يشتغل برئاسة ولا تكبر وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله فيما أنعمْ عليه به، شق عليه ذلك، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وتنغيص عيشهم، فرح به فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة لأنه ليس له سبب عارض فيعمل على إزالته بل سببه خبث الجِبلّة (الفطرة) فيعسر إزالته.

فهذه أسباب الحسد.

ويكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ويقع ذلك غالباً بين الأقران، فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا .

دواء الحسد:

الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تُدَاوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف أن الحسد ضرر عليك فى الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود فى الدين ولا فى الدنيا، بل ينتفع به والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك ، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع.

فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب فى الآخرة.

وبيان قولنا: أن المحسود لا ضرر عليه فى الدين ولا فى الدنيا، بل ينتفع بحسدك فى الدين والدنيا لأن ما قدره الله له من نعمة لابد أن تدوم إلى أجله الذى قدَّره، ولا ضرر عليه فى الآخرة، لأنه لا يأثم هو بذلك، بل ينتفع به لأنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل.

وأما منفعته فى الدنيا: فهو أن من أهم أغراض الخلق غم الأعداء ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

فإذا تأملت ما ذكرنا علمت أنك عدو لنفسك وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل مَن يرمى حجراً عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على حدقته (عينه) اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها، فيزداد غيظه، فيرميه الثالثة، فيعود الحجر على رأسه فيشدخه، وعدوه سالم يضحك منه، فهذه الأدوية العلمية، فإذا تفكر الإنسان فيها أخمدت نار الحسد من قلبه.

وأما العمل النافع فيه فهو أن يتكلف نقيض ما يأمر به الحسد فإذا بعثه على الحقد والقدح فى المحسود كلف نفسه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله الكبر ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه ألزم نفسه زيادة فى الإنعام.

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم أهدوا إليه هدية.

فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا إنها مُرة، وربما يسهل شربها بأن يعلم أنه إذا كان لا يكون كل ما تريد، فأرد (اطلب) ما يكون وهذا هو الدواء الكلى.
ثمّ كيف تحسده على الدنيا وقد ذُمّ القدر الزائد عن الحاجة منها.

(٥،٤) الحرص والطمع:

الفقر محمود لكن ينبغى للفقير أن يكون قانعاً، منقطع الطمع عن الخلق، غير ملتفت إلى ما فى أيديهم، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس.
وقد ورد النهى عن الحرص والطمع فى المال .

بيان علاج الحرص والطمع:

هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان:
الصبر، والعلم، والعمل، ومجموع ذلك خمسة أمور:
الأول: الاقتصاد فى المعيشة ، والرفق فى الإنفاق : فمَن أراد القناعة فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ويرد نفسه إلى ما لابد منه فيقنع بأى طعام كان، وقليل من الإدام، وثوب واحد، ويوطن نفسه على ذلك وإن كان له عيال فيرد كل واحد إلى هذا القدر.
الثاني: إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لابد أن يأتيه وليعلم أن الشيطان يعده الفقر.
وإذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغى أن يضطرب قلبه.
الثالث: أن يعرف ما فى القناعة من عز الاستغناء ، وما فى الحرص والطمع من الذل.
وليس فى القناعة إلا الصبر عن المشتبهات والفضول مع ما يحصل له من ثواب الآخرة ومَن لم يؤثر عزٌ نفسه عن شهوته، فهو ركيك العقل ناقص الإيمان.

الرابع: أن يكثر تفكره فى تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم ثمّ ينظر إلى أحوال الأنبياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم، ويطالع أحوالهم ويخير عقله بين مشابهة أراذل العاملين أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير، وإنه إن تنعم بالأكل فالبهيمة أكثر أكلاً منه، وإن تنعم بالوطء فالعصفور أكثر سِفاداً (نزواً) منه.

الخامس: أن يفهم ما فى جمع المال من الخطر وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى مَن دونه فى الدنيا وإلى مَن فوقه فى الدين.

عماد الأمر: الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل لتمتع دائم، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء.

كما ينبغى لمن فقد المال أن يستعمل القناعة، ولمن وجده أن يستعمل السخاء والإيثار واصطناع المعروف، فإن السخاء أخلاق الأنبياء وهو أصل من أصول النجاة.

(٦) البخل:

السخاء والبخل درجات، فأرفع درجات السخاء الإيثار، وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

وأشد درجات البخل: أن يبخل الإنسان على نفسه مع الحاجة، فكم من بخيل يمسك المال، ويمرض فلا يتداوى، ويشتهى الشهرة فيمنعه منها البخل، فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة، وبين مَن يؤثر على نفسه مع الحاجة.

فالأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء.

وقد تكلم الناس فى حد البخل والسخاء، فذهب قوم إلى أن حد البخل منع الواجب، وأن مَن أدى ما يجب عليه فليس ببخيل، لكن الصحيح أن البراءة

من البخل تحصل بفعل الواجب فى الشرع واللازم بطريق المروءة مع طيب القلب بالبذل.

وأما الواجب بالشرع، فهو الزكاة ونفقة العيال.

وأما اللازم بطريق المروءة فهو ترك المضايقة والاستقصاء عن المحقرات، فإن ذلك يستقبح من الفقير.

فأما علاج البخل:

سبب البخل حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل وله ولد، فإنه يقوم مقام طول الأمل.

الثانى: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به ويفضل معه آلاف.

وعلاج كل علة بمضادة سببها.

فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر، وطول كثرة ذكر الموت.

ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن من خلقه خلق معه رزقه، وكم ممن لم يرث شيئاً أحسن حالاً ممن ورث.

فليحذر أن يترك لولده الخير، ويقدم على الله بشر، فإن ولده إن كان صالحاً فالله يتولاه، وإن فاسقاً فلا يترك ما يستعين به على المعاصى، وليردد على سمعه ما حدث من البخلاء والأسخياء.

وإذا كثرت المحبوبات فى الدنيا، كثرت المصائب بفقدها، فمن عرف آفة المال لم يأنس به، ومن لم يأخذ منه إلا قدر حاجته، وأمسك ذلك لحاجته فليس ببخيل.

(٧) حب الجاه:

حب الجاه يُبتلَى به العلماء والعباد.

اعلم أن أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم،

والسلامة فى الخمول، وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فرّوا عنها وكانوا يؤثرون الخمول.

فإن قيل: هذا فيه فضيلة الخمول، وذم الشهرة، وأى شهرة أكثر من شهرة الأنبياء، وأئمة العلماء قلنا: المذموم طلب الإنسان الشهرة، وأما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الإنسان فليس بمذموم، غير أن فى وجودها فتنة على الضعفاء فإن مثل الضعيف القليل الصنعة فى السباحة إذا تعلق به أحد غرق وغرَّقه، فأما السابح النحرير (الماهر) فإن تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم.

ومن الجاه ما يحمد ومنه ما يُذم.

والتحقيق فيه أنه لا يكون المال والجاه محبوبين لأعيانهما، ومتى طلب الإنسان قيام جاهه لأجل صفة هو متصف بها لغرض صحيح كقول يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

أو قصد إخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته كان ذلك مباحاً، فإن طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه كالعلم والورع والنسب، فذلك محظور. وكذلك لو حسَّن الصلاة بين أيديهم ليعتقدوا فيه الخشوع فإنه يكون مرائياً بذلك، فلا يجوز تملك القلوب بتزوير ولا تملك المال بتلبيس.

علاج حب الجاه:

إنّ من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهمِّ على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءاة لهم ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق، وأصل الفساد، لأن كل مَن طلب المنزلة فى قلوب الناس اضطر أن ينافقهم بإظهار ما هو خالٍ عنه ويجر ذلك إلى المراءاة بالعبارات واقتحام المحظورات والتوصل إلى اقتناص القلوب.

فحب الجاه إذن من المهلكات، يجب علاجه وعلاجه مركب من علم وعمل.

أما الأول: فهو أن يعلم أن السبب الذى لأجله أحب الجاه هو كمال القدرة على أشخاص الناس وقلوبهم، وذلك إذا صفا وسلم يكون فى آخره الموت، فينبغى أن يتفكر فى نفسه فى الأخطار والآفات اللاحقة لأصحاب الجاه فى الدنيا، مِن تطرق الحسد إليهم، وقصدهم بالإيذاء، فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم محترزين من تغيير منزلتهم فى القلوب.

والقلوب أشد تغيُّراً من القدور فى غليانها، فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة، مكدرة لحفظ الجاه فلا يفى مرجو الدنيا بمخوفها، فضلاً عمّا يفوت فى الآخرة فهذا من حيث العلم.

وأما العلاج من حيث العمل :

فهو إسقاط الجاه من قلوب الناس بأفعال توجب ذلك. كالتواضع والتقشف.

وأكثر الناس هلكوا لخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضا الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات فوجبت معالجته.

وطريق ذلك النظر إلى الصفة التى مدحت بها إن كانت موجودة فيك فلا يخلو إما أن يكون مما يُفرح به كالعلم والورع أو مما لا يصلح أن يُفرحَ به كالجاه والمال.

أما الأول: فينبغى أن يحذر من الخاتمة، فإنّ الخوف منها شُغل عن الفرح بالمدح، ثمّ إن كنت تفرح بها على رجاء حُسن الخاتمة فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس .

وأما القسم الثانى: وهو المدح بسبب الجاه والمال لا يفرح به إلا مَن قلَّ عقله فلا ينبغى الفرح به وعلاج كراهية الذم أن من ذمك إما أن يكون صادقاً فيما قال، قاصداً للنصح فينبغى الرضا بقوله وعدم الغضب، وإن لم يقصد النصح فإنه يكون جنى على دينه، وانتفعت بقوله ، وينبغى هنا التفكر فى ثلاثة أشياء:

- إنك إن خلوت من هذا الذنب لم تخل من أمثاله.
- أن ذلك كفارات لذنوبك.
- أنه جنى على دينه وتعرض لغضب الله فينبغى سؤال الله العفو عنه.

(٨) الريـــاء:

الرياء منه ما هو فى الدين: وهو إما أن يكون من جهة البدن، أو الزى، أو بالقول أو بالعمل كطول الصلاة أو بالأصحاب والزائرين. وهو درجات:

أغلظها: ألا يريد بعمله العبادة بل الناس أو مطلب آخر.

والثانى: أن يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً.

بحيث لو كان خالياً لم يفعل الطاعات. فهذا كالسابق.

والثالث: أن يكون قصد الثواب والرياء متساويين بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل ، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح ولا يسلم من الإثم.

الرابع: أن يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه ولو لم يطلع عليه أحد لم يترك العبادة ، فهذا يثاب على قصده الصحيح ويعاقب على قصده الفاسد وقريب من ذلك الرياء بأوصاف العبادة لا بأصلها، كالذى يصلى وغرضه تخفيف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن ذلك فهذا أيضاً من الرياء المحظور، لأنه يتضمن تعظيم الخلق، ولكنه دون الرياء بأصول العبادات.

علاج الرياء:

العلاج له مقامان هنا:

أحدهما: فى قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه.

والثانى: فى دفع ما يخطر منه فى الحال.

أما الأول: فإنّ أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فُصِّل رجع إلى ثلاثة

أصول: وهى حب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما فى أيدى الناس.

وقد لا يشتهى الإنسان الحمد ولكنه يحذر من الذم، كالجبان بين الشجعان، فإنه لا يثبت ولا يفر لئلا يذم، وقد يفتى الإنسان بغير علم حذراً من الذم بالجهل فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك الرياء.

وعلاجه:

أن الإنسان إنما يقصد الشىء ويرغب فيه إذا ظن أنه خير له ونافع، إما فى الحال، أو المآل، فإن علم أنه لذيذ فى الحال ضار فى المآل سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان أن فيه سُمًّا أعرض عنه، فكذلك طريق هذه الرغبة.

❊ ❊ ❊